

بِسْمَفُونِيَةِ الصَّحْرَاءِ

للأستاذ عبدالحق فاضل

لم يعرفه فقال له : يا كلب ! فاجابه المعري : الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسماً ! وبهذا الجواب عرف نفسه بأنه من العلماء ، وردّ الشتم على الرجل ، وشتينا جبيما .. فمن منا يعرف للكلب ولو سبعة أسماء ؟

وأسوأ من تعدد الالفاظ للمعنى الواحد تعدد المعاني للفظ الواحد — مما سبب الخلاف في فهم الكثير من النصوص الجاهلية والاسلامية . ثم هناك عدم اطراد المعاني في استعمالات الكثير من صيغ التفاعل والتفعيل والتثقل والاستعمال ونحوها ، بالرغم من اطراد تصريفها .

وأدهى من ذلك عدم اطراد تصريف الالفاظ الثلاثية نفسها وهي العمود الفقري للغة — ما يتطلب تعلم تصريف كل فعل على حدة ، ماضيه ومضارعه ومصدره ، بل مصادرته في الكثير من الاحوال .. منها مثلاً : كتب يكتب (كَتَبًا وكتَابًا وكتِبة — بالكسر — وكتابة) ، وثار يثور (ثَوْرًا وثورًا وثورانا) .

هذا الى كثرة الشواذ والمستثنيات في كل قاعدة تقريباً .

حتى الفاعل يدل على المفعول أحياناً . الا تصدق ؟ الجسد الكاسي (يعنى المكسو) والاتف الراغم (يعنى المرغوم) !

سئلت ذات مرة أن اكتب عن اللغة العربية (غناها وخصائصها) .

غناها يعنى واحدة من خصائصها — وخصائصها تمنى مزاياها وعيوبها .

عيوب العربية

غير قليلة ، لا تحصى كثرة . منها صعوبة تعلمها بسبب كثرة مفرداتها . ومتراذفتها ، على المتعلم ، وقد روى أحمد بن فارس عن الثعالبي أن حمزة الاصميهاني قد جمع من أسماء الدواهي ما يزيد على اربعمئة ! ومع انه اورد ذلك في معرض المباحة بغزارة معين العربية ووفرة مفرداتها لم يسمعه الا أن يكمل الرواية بقوله : « وذكر أن تكاثر أسماء الدواهي من الدواهي » !

وجمع بعضهم للاسد خمسمئة اسم وللحبة مئتين ! ..

وقد سأل الرشيد الاصمعي « عن شعر لابن حزام المكي ، ففسره ، فقال : يا أصمعي ، إن الغريب عندك لغير غريب ، قال : يا أمير المؤمنين ، الا اكون كذلك وقد حفظت للحجر سبعين اسماً ؟ » . كذلك رووا عن أبي العلاء المعري أن احد السفهاء

حتى المؤنث يدل على المذكر أحيانا ، مثل نَسَابَة
(بالتشديد ، اى نَسَاب) وراوية (اى راو) .. ومثل
حيزة وطلحة وعنبسة : أسماء رجال !

حتى المذكر يستعمل للمؤنثة أحيانا ، مثل : ظئر
ومرضع وحامل .. ومثل حَذَام ونَعَم وزينب : أسماء
نساء .

وهناك ما يطلق على الذكر والانثى كالخادم
والفمیل كالجريح والفعول كالصبور .. والطفل
يعنى الذكر والانثى والمفرد والجمع !

ومن المفرد الذى يدل على الجمع عدا ذلك :
الركب والسفر والسكن (كلها زنة النصر) اى الركاب
والمسافرون والسكان .

ثم لديك المفرد الذى لا جمع له من لفظه والجمع
الذى لا مفرد له من لفظه ..

اما جموع التكسير فائى شىء نقول عنها ؟ السيف
جمعوه على : سيوف واسياف وأسيف (كأروس)
ومَسْبِغَة (كجزرة) .. والاسد جمعوه على : أسد
(ككُتَب) وأسد (ككُتْر) وأسود (كرؤوس) وآساد
وأسد (بضم السين) وأسدان (كجُرذَان) ومأسدة ..
والشيخ على : شيوخ (بالضم) وشيوخ (بالكسر)
وأشياخ ، وثيخة (كصيفة) وثيخة (كديكة)
وشيخان (كحيتان) ومَشْيُوخَاء (بالفتح) ومشيخ
ومَشْيِخَة (كمدينة) ومَشْيِخَة (كهزلة) .

والاسماء التى لا تملك مثل هذه الثروة اللغوية
من تعدد الجموع لا يمكن التوصل الى معرفة جموعها
مهما قل عددها ، عن طريق القياس ، فلا بد من تعلم
كل واحد منها بالسمع . اما حالات جمع الجمع
فنعميك من سردها وحسبنا وحسبك منها قولهم :
« ليس فى كلامهم جمع جمع ست مرات الا الجمل
فاتهم جمعوه : اجملا ، ثم لجمالا ، ثم جاملا ، ثم
جمالا ، ثم جمالة ، ثم جمالات . قال تعالى : « جَمَالَةٌ
سُفْرٌ » فجمالات جمع جمع جمع الجمع ! *
.. ثم يأتيك العدد والمعدود فيبطشان ما شاء لهما

البطش بقواعد اللغة افرادا وجمعا ، وجرا على
الاضافة آنا ونسبا على التمييز اوانا ، وتغيير حركة
آخر المعدود حسب موقعه من الاعراب طورا وبناءه

على النصب لغير سبب مفهوم طورا آخر ، وتائيدا
مع مذكر وتذكيرا مع مؤنث فى حالات دون حالات .

وما نكرنا من مشاكل هذه العربية وتمتعياتها
غير القليل جدا من الكثير جدا ، وما على من يريد
ان يفهم الحال على شىء من حقيقتها الا ان يتورط
فى قراءة اى شىء من تلك المؤلفات العديدة الموسعة
فى قواعد اللغة صرفا ونحوها وتخريجا .

فمن جراء هذا كثرت المشاحنات والخصومات بين
جهاذة العلماء أنفسهم فى العبارة ما معناها ، واللفظة
ما معناها او ما موقعها من الاعراب — يجهل (بالتشديد)
بعضهم بعضا ويسببه ويشنع عليه .

انى لأشعر بالعطف على كل اجنبى يتعلم هذه
اللغة ، بل انى لياخذنى العجب من نفسى أحيانا كيف
تعلمت بعض قواعد المعقدة كحالات العدد والمعدود،
والتمييز بين طائفتي (بَقِيَّ بِيَقَى بَقُوا تَبَقُونَ ..
وَمَتَى يَمِشِي مَشُوا يَمِشُونَ) اللتين لم يعد يفترق
بينهما الا الاتلون .. المنتطسون .

وما لنا نرثى للجانب ، وها هم تلاميذنا اولادنا
المساكين يعاتون من تعلمها رهقا ما بعده رهنق ،
ويرسب بعضهم العام او العامين فى نصله من اجلها ؟
حتى غدت عند الاكثريين منهم اشق مواد الدراسة
والمنها .

ما اتول كل هذا — ويمكن ان يقال اكثر منه —
لاندد بلغنى التى اتمسقتها ولا اعدل بها لغة فى التاريخ
— ولا فى الجغرافيا — لكن هذه المصاعب فى تعلمها
فى هذا العصر الذى تتعدد فيه مواد الدرس ، والكثير
منها علمى تطبيقى مما يفتقر اليه كل بلد متحضر او
سائر فى سياق التحضر — هذه المصاعب اللغوية —
بل المصائب اللغوية — قد اضعفت تعلم العربية
فزادت اغلاط الكتاب والمترجمين الى درجة خطيرة
حقا وركت اساليبهم حتى اصبحت الاخطاء والركبة
ترانا للجيل الجديد واصبحت اللغة تزداد ضعفا
وانحلالا يوما بعد يوم .

هذه المشاق والتعقيدات لم يكن يحس بها
العربى الجاهلى لانه يرضع اللغة مع الحليب ونادرا
ما كان يلحن . والعربى الاسلامى كان يرضعها مع
الحليب ايضا لان لغة الكلام كانت ما تزال الفصحى ،

وكان يدرسها في نفس الوقت ويجد في درسها متعة ومباهاة . أما اليوم وقد تغيرت الظروف هذا التغير الهائل فقد أصبح تعلم اللغة على الأسلوب القديم من المستحيلات — الا على ذوى الاختصاص . حتى ذوو الاختصاص وحتى حملة شهادة الدكتوراة المتخصصون باللغة يرتكبون أحيانا من الأخطاء ما ليس مقبولا لو صدر عن تلاميذهم .

وما زالت الأخطاء المشتركة تتزايد والعارفون باللغة يتناقصون . وسوف ينفرد عقد العربية في بضعة أجيال حتى تغدو لغة عامية مشتركة بين الأقطار العربية ، بلا حركات اعراب ولا ضوابط . . وتنضم الصلة بيننا وبين تراننا المؤئل الباهر ذاك ، في ميمة نهضتنا ونشوتها .

رَبِّ يَسْر

ولو كان تعدد القواعد وتنوعها وكثرة الشواذ مما يعد ثروة لغوية مثل تعدد المترادفات اذن لكانت العربية اثرى اللغات بقواعد النحو والصرف ايضا ، وهى فعلا اغناها بكتبها النحوية واللغوية وتخريجاتها وتاويلاتها ترهق الدارسين ولا تضيف الى العلم والمعرفة بشؤون الكون واسرار الحياة ، فتبلا .

عندما تسلم النحاة هذه اللغة درسوها ومحصوها واخذوا بما اتفقت عليه اكثرية القبائل ، ونفوا ما انفردت به قبيلة او قبائل مما يخالف الاغلبية . نبذوا مثلا لغة « نحن الذون صبّحو الصباحا » واخذوا باللغة الأروج وهى لغة (الذين) مع ان الاولى اصح في حالة الرفع ، ونفوا رفع اسم (إن) في لغة « إن هذان لساحران » ، ولغة (استمّرنا) بمعنى (استمررنا) ، وابطلوا عمل (ما) الحجازية . . والغوا نطق بعض الحروف في بعض اللهجات لندرتهما ولاتحصارها في عدد محدود من العرب مثل : الكشكشة والنشنة والتضجج والاستنطاء وما الى ذلك * . . بصرف النظر عما اذا كانت حسنة او سيئة .

وبالرغم من كل ما حذفوا مما لا يكاد يحصى كثرة ، وجدوا مستثنيات كثيرة تشذ عن القواعد العامة — لكنها مستثنيات مشتركة بين كثير من القبائل فلم يحذفوها بل تعدوها وفرضوها علينا . حذفوا الكثير وبقي الاكثر ،

وما علينا نحن اليوم إلا أن نحذف حذوهم ونكمل ما بدأوا فنلغى الباقى من المستثنيات الزاخرة مراعاة لظروف عصرنا وابقاء على كيان اللغة الذى يوشك أن ينهار ، واللغة على كل حالة ااداتنا ولسنا ااداتها .

وتقييس اللغة ليس من اختراعنا فقد كثر القائلون به والداعون اليه ، من الاحداث ومن الاتدمين الذين قال بعضهم مثلا ان كل أسماء الجمادات يجوز فيها التذكير والتأنيث ، واقترح بعضهم تقييس الأعمال الثلاثية وتوحيد ابوابها الستة في باب واحد كفتح يفتح مثلا . والذى نقترحه نحن بدلا من ذلك تصنيفها بحسب معانيها للاستفادة منها اولا والتخلص من فوضاها . الراهقة ثانيا . . بالاضافة الى ضرورة تقييس مصادرها بدلا من تركها من غير ضابط ، على السماع . والسماع على كل حال لم ينتقل اليها من اللغة الا الجزء الاقل .

حتى لو لم يكن القدامى قد قالوا من ذلك شيئا نواجهنا نحن اليوم تجاه لغتنا وتجاه انفسنا أن نقوله ونقول معه كل ما نراه صوابا .

ولا مفر من التنازل عن بعض الاجزاء ، والا خسرنا الكل خسرانا مبينا . وان مع العسر يسرا .

ومتى تم لنا اصلاح لغتنا العظيمة وسهلنا تعلمها تمت لنا مزاياها وساغ تعلمها على ابنائها وعلى الاجانب الذين سيقبلون عليها ايما اقبال ولا شك ، وخاصة يوم يأخذ اهلها العرب مكاتهم الدولى والحضارى في الطليعة مع الشعوب التى تقود الرقى البشرى علما وتتنا وانسانية وسلاما . . فتكون لغتهم بالاضافة الى مزاياها الاخرى ، التى سنتحدث عنها وشيكا ، اكمل اللغات بحق واوقاها بحاجات العصر . بل ان بعض الشعوب المسلمة سوف تتبناها بدلا من لغاتها الحاضرة ولا سيما اذا كانت لغاتها هذه ليست بالقومية الاصلية . وفى باكستان مثلا حركة كبيرة تدعو الى تبنى العربية فيحتج عليها المعارضون بصعوبتها . والكثيرون من طلاب اللغات في الجامعات العالمية يودون تعلم العربية ذات المجد والتاريخ قديما وذات الاهمية السياسية والاقتصادية حاضرا ، لكن ما يسمعونه عن هذه الصعوبة الشاذة يصرف الاكثريين منهم الى تعلم لغات اخرى .

لا ندرى بعد كل هذا — ايها العزيز القارىء — ما رايك في اى الابوين اشد حبا لولده المريض . . ذاك

* للمزيد يراجع : احمد تيمور باشا — كراس « لهجات العرب » .